السرطان وعودة يسوع

قصة بقلم عايدة سليمان

حين توارت قامة الطبيب من باب غرفته ، القى بظل ساخر على وجهه وعلق عينيه على صورة المسيح المصلوب امامه . لم يبق له سوى ان يخبر امه ، ان يقول لهاكل الحقيقة . كيف يبدأ ؟ لا بأس ، سيقول لها إولا انه يود ان يرى رفاق المدرسة .

« طبعا اشتقت لهم يا روحي »

« ليس هذا فقط ... اظن لن اراهم .. »

وسترسم امه شارة الصليب على صدرها وتردف بلهجة مشجعة :

« اهكذا تخاف ؟ تخاف من العملية الى هذا الحد ؟؟ »

ثم تعود لتردد اسم العذراء او مار يوسف الى اخر الحلقة . « نذرت لمار الياس وهو لايرد نذرا وخاصة اذا كان من تعب يدي » وهل يتوقف عند هذا الحد ؟ هل يترك امه غارقة بامالها وايمانها بالانبياء والرسل .. وبهذا المصلوب على الحائط ؟ ام انه يكمل اعترافه وليكن انبياء امه بعونها ان استطاعوا ؟

« اعرف هذا .. ولكن .. اعني انني لن اجري العملية » وحينها ستلتقي عيناهما في دقيقة رعب والتياع ، وربما لاتدرك المسكينة لتوها، ستصر :

« لكن الدكتور يقول انها غدا .. او بعد غد على الاكثر » وسيكمل بهدوء ماتعوده من قبل :

« اليوم اكد لي ان لا لزوم للعملية » انها ليست غبية ، ستدرك حالا ذلك المفزع الرهيب ، ذلك الخبيث الذي ينمو في جسده ، ستعرفه امه. منذ ستوات ليست بعيدة ، الطبيب قال لابيه « لا لزوم للعملية » وصرخت حينها المسكينة « اتعني ستشفيه الحقن يا دكتور ؟ » واليوم تتكرر الحكاية نفسها . ستعرف امه ان تلك الحقن ليست سوى مورفين يسكت الالم لساعات يتمكن فيها ذلك الخبيث من النمو في جسده ، يتسلل الى كل اعضائه ، الى كل خلاياه ، يتكمش بها ، يمتصها ، تمتصه ،الى ان يصبح كل جسده ، هو كله يصبح سرطانا كبيرا ، سرطانا هائلا يتنفس في الفراش ، ولن يكون للمورفين قدرة على اخراس آلامه حينذاك. وتلك المسكينة ستجلس هنا ، قرب الوسادة ، ستتكلم ، ستبكي ، ستصلي كثيرا حتى يعيش هذا الجسد ، هذا الوحيد المتبقي لها . ومن يدري ربما تصلي ليموت ، لينقرض هذا السرطان النتن من بيتها ؟ وذات ليلة ستولول ، ستنادي الجيران ، لقد تجمدت اليد النحيلة بين يديها ، وتقلصت الحياة من الفراش ...

كل هذا حدث منذ زمن ، في هذا الفراش نام والده يحمل سرطانه الاحمر . وهو الان ينام مكانه ليكرر الحكاية ، وتلك المسكينة لماذا قدر لها ان تسمع الحكاية مرتين ؟ ان تعيش دقائق الموت المنتظرة ودقائق الوحدة التي ستتلوها ؟ ليته يستطيع ان يهرب بفراشه الى اقصى الوجود فلا تلحقه عيناها المؤمنتان ، ولا يسمع خطواتها تترب . يا الله انه يسمعها خطوة خطوة ، انها تقترب من الباب ، تفتحه ، وجهها في اطلالة خفية ـ « لعله نائم ؟؟ »

ويتشبث وجهه بشبه ابتسامة ، وتقترب هي اكثر فاكثر ، تجلس هنا قرب الوسادة ، نفس المكان الذي يجب ان يبدأ منه ، لكن قلبه ما اعلى ضرباته ؟؟ ما اقواها، يكاد لايسمع امه :

« اظنك تتحسن ياحبيبي .. اللون يعود الى خديك ... »

وهم ان يقول شيئا :

« اتتعبك الوسادة هكذا ؟؟ تمسك بكتفي قليلا .. قليلا .. » نسي .. يا الله كيف يبدأ ؟... لا بأس « ماما لو تدعين رفاقي .. ثم اظن لن اراهم .. والعملية .. الخ » وفتح فمه مرة اخرى ، لن ينسى ، ولكن هي لم تتحرك ؟ وقفت ؟ قبالته ؟ » تبدو تعبا ، لا تتكلم .. سامسح العرق عن جبينك »

يعرف تماما ان العرق يغسل جبينه . بل كل جسده ، ولكن لابد ان يتكلم ، ان يقول اي شيء ، لتعلم الحقيقة ، ليقول مباشرة ، سيعلن اسمه ، هكذا « س س ر ط ان » وفتح فمه ليعلن الكلمة .

« سيتعبك الكلام ... لا ، لا ... يا بني ، اسمع ، انا سأقرأ لك شيئا . »

وبدأت بسرعة حتى لايتفوه ولا يتعب . كان يعلم ماذا ستقرأ . لابد انه كتابها المقدس . يا الله ! لكم سئم قراءاتها به ، لكم سئم قصة يوسف وراعوث وبولس ، قرأتها عليه صغيرا والان لو تدرك فقط ان كل هؤلاء لن يفيدوها شيئا . زوجها مات وحتى ابنها سيمضي قريبا ، وكتابها هذا ليته يمضي ايضا ! ليتها تسكت ليقرأ كتابه هو :

« وقال له يسوع مغفورة لك خطاياك ... » وشعر بانه يصفي ، بل انه يحسد ذلك الذي قيل له في برهة انه شفي ففادرته آلامه . ليت احدا يقول له هذا القول ،نبي اي نبي من انبياء امه لم يؤمن بهم في يوم من الايام ، لم يذهب الى الكنيسة من زمن بعيد . كانت امه تأخذه في اعياد الشعانين حين كان طفلا وحين كبر لم يزر الكنيسة ، لم يصل، لم يعترف ، لكم سيهزأ به يسوع لو عاد يوما والتقاه ، سيطرده من وجهه سيقول له :

« انا لا اعرفك .. اين بيتك ؟ » سيدين وجهه منه لانه كافر ...

« ولكن اسمع يا يسوع ، انت تعرف امي .. كل احد تذهب الى الكنيسة » وحينها يتوقف يسوع ، ويفكر ، يحاول ان يستذكر امه .

« تلبس الاسود من عشر سنين ... حين مات ابي » ، وكأن يسوع قد تذكر امه التي تلبس الاسود والتي تحبه كثيرا :

« لكم تحبك هي ... كل جدران بيتنا ملأتها بصورك ؟ ويبتسم يسوع العائد « لكم هو سخيف هذا الصبي » .

« ولكن اسمع لو تجيء الى بيتنا ،فقط لو تجيء » . ويهم ان يقترب منه ليهمس في اذنه شيئا ، ليقول له انه مريض وانه يتألم كثيرا ، اكثر بكثير من ذلك الذي قال له قديما مغفورة لك خطاياك ، ولكن من الافضل ان يذهب به الى البيت حتى لا يعرف الناس انه يحمل في جسده

السرطان . ومن يدري ستكون الالاف خلفه . كل اهل المدينة سيحملون سرطاناتهم ودمائلهم وكل عذاباتهم سيحملونها لهذا الاله العائد .

كان صوت امه يخفت شيئا فشيئا ، يكاد لا يسمع قراءتها . « حسنا لكم ستفرح بعودة يسوع » ولكن كيف يجيء ؟؟ كيف يأتي الى المدينة ؟؟ لاباس وتطلعت عينا المريض في صورة المصلوب امامه .

« اسمع يا يسوع . في الليل حين تنام المدينة ، حين تغلق الاسواق وتطفيء المباني انوارها ، ستأتي انت .. اتعرف الميناء ؟ حين ترسو كل السفن وينام الحمالون المتعبون تأتي انت هكذا ماشيا على صفحة الماء ولن يراك احد .. او لا بأس ان رآك حمال مسكين في يده جرح كبير ..

ستهتز الموجات حين تسير عليها والشاطيء سيحس بالراحة حين تجتازه انت والحمال المجروح سيلمس رداءك وسيتوقف جرحه عن السيلان وسينادي رفاقه :

« الغريب هل رأيتم الغريب ؟ »

ماذا لو لحقه الحمالون كلهم وعمال الميناء والبحارة وعندها سيضيع الغريب ، سيسير في ازقة المدينة يشفي المرضى ويعزي التعساء والمدينة كلها تسير في ركابه ، والف مجدلية تمرغ شعرها المصبوغ على قدميه :

« ولكن انا يا يسوع ... انا بيتي في اخر المدينة لو تأتي الى بيتنا فقط لو تأتي الى بيتنا » . ولكن الغريب لن يسمع صوته بين الالاف . لا بد ان يقترب منه ليهمس في اذنه انه مصاب بالسرطان :

« انه غير البرص ،غير الصرع والأجساد المسكونة التي تعرفها يا يسوع » يا الله ... الغريب لم يسمع بالسرطان من قبل ، لا يعرف آلامه .. لقد تذكر شيئا سيقول له انه كالصلب « اتذكر حين صلبوك .. كم تألمت ؟؟ » وسيدرك يسوع كل شيء وسيجيء الى هنا ، الى فراشه حتى لايتعذب في السير وراءه ، وسيلتقي هنا بامه ، امه التي تقف قبالته ، عيناها في عينيه :

« هل رأيته ؟؟ كان هنا ... »

ـ « الطبيب ؟ » كان لابد من استدعائه .. من ساعات وانت تهذي.. يا حبيبي » .

عايدة سلمان

دار الآداب تقدم

عاصفة على السكر

بقلم

جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

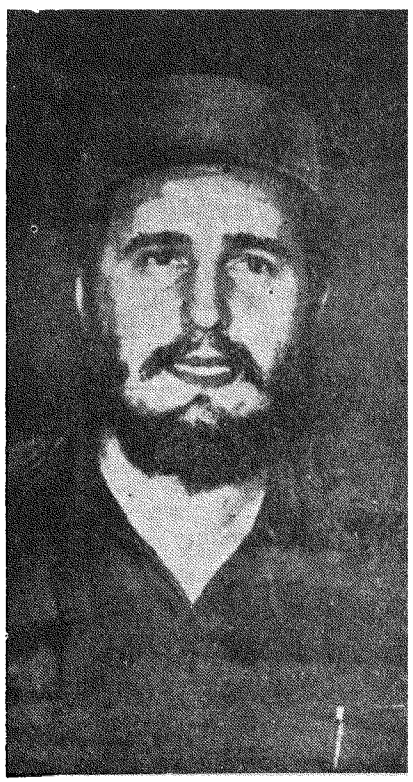

كتاب رائع يتحدث فيه الكاتب الفرنسي الكبير عن الثورة الكوبية التي قادها فيديل كاسترو ، ويفضح خطط الاستعمار الاميركي لخنق اقتصاديات كوبا ،ويصف مختلف الاوضاع السياسية والاجتماعية التي ادت الى نشوب هذه الثورة التي تعتبر من اروع الثورات في تاريخ الشعوب .

كل ذلك باسلوب تحليلي طريف وعميق امتاز به جان بول سارتر ، وروح تحررية تجعل هذا الكاتب العالمي في طليعة المفكرين الاحرار الذين عرفهم تاريخ الفكر والسياسة.

صدر حديثا

الثمن ثلاث ليرات لبنانية